

رَسُولُنَا ﷺ

كان في صغره متكلاً على جده ثم عمه ولم يكن فقيراً

■ بقلم الدكتور عودة الله منيع القيسي

تمهيد: موقف الحضارة الاسلامية بعد القرن الرابع عن النمو:

معروف ان الحضارة الاسلامية، بدأت بالصعود منذ انبلاج فجر الاسلام العظيم، على يد سيد البشرية، رسول الله وخاتم النبيين محمد^(١) ابن عبد الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ الأحزاب: ٤٠، وظلت صاعدة حتى نهاية القرن الرابع الهجري تقريباً، ثم أخذت تسير بخط أفقي خلال القرنين الخامس والسادس، وفي هذه الحقبة أغلق باب الاجتهاد، فكان نذيراً بما يأتي؛ اذ أخذت الحضارة الاسلامية في الانحدار، حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري تقريباً.

عند ابن خلدون، في السياسة والاقتصاد والاجتماع - وثلاثتهم من علماء القرن الثامن)، فعقمت الحياة، فلم تأت بجديد.

ولم يكن هذا في جانب واحد من جوانب الحياة، وإنما شملها كلها، وما يهمنا هنا هو كتب «السيرة العطرة والتفاسير»، فقد اضحى كتاب السيرة العطرة يرددون ما قاله محمد ابن اسحق رحمته الله (ت ١٥١هـ)، من أخبار معظمها غير موثق، ولا تخلوا من غرائبيات، ثم ما كان من عبد الملك ابن^(٢) هشام رحمته الله

وقد رافق حققتي التوقف عن الصعود والانحدار، تقديس لما ليس مقدساً من الرجال والأفكار، (فليس في الاسلام مقدس الا القرآن الكريم والرسول الكريم والحديث النبوي الصحيح)، فكانت نتيجة ذلك ان غلب «التقليد» على العلماء، فأضحى العلم جمعاً وتصنيفاً لما خطه المسلمون الأوائل حتى نهاية القرن الرابع، وترديداً لأقوال هؤلاء الأوائل (الا في النادر - كما كان عند ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية في الفقه، وكما كان

وما يعنيها هنا من السيرة.. ما فسر به ابن هشام كلمة العائل في قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى ❖ ووجدك ضالاً فهدى ❖ ووجدك عائلاً فأغنى﴾ الآيات: ٦-٨، وكذلك ما فسرته به التفسير هذه الكلمة، قال ابن هشام مفسراً (العائل): «... والعائل: الفقير، قال أبو خراش الهذلي:

الى بيته يأوى الضريك اذا شتا

ومستبح بالي الدريسين عائل^(٢)

والعائل ايضاً.. الشيء المثقل المعني، يقول الرجل: قد عالني هذا الأمر، أي أثقلني وأعباني، قال الفرزدق:

ترى الفر الجحاج من قريش

اذا ما الأمر في الحدثان عالا^(٤)

تفسير ابن هشام:

ابن هشام فسر (العائل) بأنه الفقير، واستشهد ببيت أبي خراش الهذلي، والعائل في البيت هو الفقير حقاً، بيد أن هذا لا يعني أن هذا هو المعنى الوحيد للعائل، يدل على ذلك أنه فسر العائل بالذي يعول العيال ثم بالخائف، واستشهد ببيت أبي طالب على هذا المعنى الأخير، ثم جاء بمعنى رابع، فالعائل هو الثقل المعني، واستشهد عليه ببيت الفرزدق.

وفي مجال التفسير.. الشيخ الألوسي - رحمه الله - الذي جمع فأوعى كثيراً مما قاله السابقون في التفسير، يفسر العائل بثلاثة معان، فالعائل هو: الفقير، وهو الذي وهب القناعة، وهو الذي استغنى بالإيمان بربه

(ت ٢١٨هـ) من حذف لبعض الأخبار التي أوردها سلفه (بعضها يشنع الحديث به) ولأشعار ذكرها (لم أر أحداً من أهل العلم يعرفها)، هكذا يقول ابن هشام، ومع هذا فإن ابن هشام هذا، لم يوثق ما كان غير موثق عند سلفه (وهو ٩٠٪ من السيرة تقريباً) مع أن الرجل جاء في حقبة شمر فيها الأئمة العظام - كالبخاري ومسلم - رضي الله عنهما، عن ساعد الجد، في جمع الحديث الشريف، والتوفر على تخليصه مما ليس منه، فكان عمله في السيرة هيناً.

ثم لم يكن شأن كتاب السيرة بعد ذلك بأجود، فلم يوثقوا، بل اعتمد بعضهم الزيادة على ما استقر عند ابن هشام، أخذاً لهذه الزيادة من كتب التاريخ، وبعضهم اعتمد الاختصار، وآخرون اعتمدوا الشرح ليس أكثر، وبعضهم نظمها نظماً، وكان عمل الجميع فيها محدود الفائدة، يخلو من التوثيق، باستثناء علماء الحديث، فقد وثقوا بعض الأخبار.

وإن المفسرين ليسوا أطول باعاً من كتاب السيرة، إذ أضحى المتقدمون منهم ينقلون عن الامام الطبري (ت ٣١٠هـ) رحمته الله، وأمسى المتأخرون ينقلون عن الطبري، وينقل بعضهم عن بعض، الفرق هو في الصياغة، أو في التفصيل عند البعض، والإجمال والاختصار عند البعض الآخر، أما الجديد المبدع فتادر، ومن أبرز أعلامه، الإمامان ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، والمفكر ابن خلدون.

تفسير ابن هشام والمفسرين له «عائلاً»:

عمن سواه^(٥).

كامل معاني (عائلاً):

ان المعاني الأربعة التي أتى بها ابن هشام (للعائل)، هي بعض المعاني التي تحملها كلمة (العائل) المشتقة من (عال يعول، وعال يعيل) لأن من معاني عال: احتاج، ومال يميل، وجار في الحكم، ويكى أو رفع صوته في البكاء، واستغاث، واتكل على غيره، وعال له: سعى من أجل الاتفاق عليه، وعال: كثر عياله، وعال في البلاد: ذهب، وعاله على رأيه: غلبه على رأيه، فهذه ثلاثة عشر معنى لكلمة (عال)، منها أربعة ذكرها ابن هشام، وتسعة اضافها ابن منظور في معجم «لسان العرب».

ما سبق يعني شيئين، الأول: ان ابن هشام لم يستقص معاني (عال)، والثاني: أنه ذكر أربعة معان، دون ان يحدد الذي جاء وصفاً لحالة الرسول ﷺ، سواء أكان المعنى الذي يصلح لحالة الرسول معنى واحداً، أو أكثر من معنى واحد، وهذا يعني ان ابن هشام ذكر المعاني -او معظمها- التي وردت في معجم «العين» للخليل ابن أحمد الفراهيدي، وفي معجم «جمهرة اللغة» لابن دريد، فقد ألف الأول، وابن هشام في صباه، وألف الثاني في أيام نضجه.

ومن هذا نستنتج ان ابن هشام لم يكن «لغوياً» لا كما يدعي بعض من يحكم بلا دليل بأن ابن هشام كان لغوياً، فلو كان لغوياً أو ذا فقه للغة، لحدد المعنى او المعاني التي جاءت وصفاً للرسول ﷺ، اتساقاً مع دلالة الآية، اما ان ينثر المعاني الأربعة، دون ان يحدد، فهو

ليس أكثر من ناقل -بلا توصيف- لما جاء في معجم «العين» ومعجم «الجمهرة».. وهكذا يفعل فقهاء اللغة، والدليل الثاني على انه ناقل، وليس بفقير لغة، انه لم يترك ولا كتاباً في اللغة، حتى لو كان صغير الحجم.

اذن ما المعنى الذي يصح هنا، مع رسولنا العظيم ﷺ وصفاً له؟

الجواب يقتضي أمرين، الأول: ان المعنى الأصلي لـ (عال يعول - وعال يعيل) وهو الميلان، ولذلك قال عثمان رضي الله عنه، وكتب الى اهل الكوفة: «اني لست بميزان لا أعول» اي لا أميل عن الاستواء والاعتدال^(٦)، وهذا هو المعنى الأصلي، لأن المعنى اللغوي الأصلي غالباً في كل لغة هو معنى مادي محسوس، لأن تطور المجتمعات العقلي يبدأ من المحسوس، ثم تجد للكلمات مع التطور معان معنوية، مع بقاء المعنى المحسوس غالباً، فالميزان شيء مادي، وميلان الميزان هو ارتفاع احدى كفتيه وهبوط الأخرى، اي هو ميله أو ميلانه، اي هو خروجه عن حد الاعتدال.

وعلى هذا.. فكل المعاني السابقة تتبثق من هذا المعنى المحسوس، فالعائل: هو الفقير الذي مال وضعه المالي عن الاعتدال او التوازن، ومالت صحته عن اعتدال الصحة، لأن الفقر اضعفه، لسوء التغذية - والعائل: الذي يعول العيال - اي يجعل صحته حسنة بالتغذية المناسبة، ولولا ذلك لما لوا عن الصحة الى الضعف والهزال، وهذا يسمى في فقه اللغة «التضاد» أي يجيء معنى تطوري للكلمة مضاد لمعناها الأصلي، وهذا كثير في اللغة، من ناحية

وعال: كثر عياله، والذي يكثر عياله لا بد من ان يجسد ويكد، من اجل ان ينفق على العيال، وهو لا يتعب نفسه من اجلهم الا لأنه يحبهم، والحب ميل وانجذاب، وعال في البلاد: ذهب، والذي يذهب في البلاد فإنه يبتعد عن داره وأهله، فيشتاق اليهم، والشوق هو ميل المشتاق الى من يشتاق له، والذهاب في البلاد ايضاً هو، المائل عن بلاده، وعاله على رأيه: غلبه على رأيه، لأن المغلوب ليس على الحق غالباً، وما كان ليس حقاً فهو مائل عن الصواب.

أرأيت ان المعاني الثلاثة عشر، كلها تعود الى الميلاق، والى الخروج عن حد الاعتدال، مع فروق خاصة بين المعاني، بحيث يصلح المعنى في موقع وسياق، ولا يصلح في موقع وسياق آخر؟

ماذا يصح من هذه المعاني، وصفاً لحالة رسول الله ﷺ؟

الجواب، ما يصح وصفاً للرسول ﷺ حسب مقام الآية ومقالها، هو عال: اتكل على غيره فـ «عائلاً» في الآية، معناها: متكلاً على غيره، وهذا كان امر رسول الله ﷺ، منذ ان ملأ نوره الآفاق بالولادة، فكفله جده العظيم عبد المطلب، ثم عندما توفي وعمر الرسول ﷺ ثمانين سنوات، كفله عمه العظيم ابو طالب، فكان متكلاً في عيشه ورعايته والحدب عليه، أولاً على جده، ثم على عمه، حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره^(٨)، وتزوج من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فبسطت مالها بين يديه الشريفتين.

أخرى، فإن الذي يعول العيال يميل اليهم، أي يعطف عليهم، وهذا معنى ايجابي مقابل المعنى السابق السلبي الذي قام على التضاد.

والعائل الخائف، لأن الخائف تضطرب أحواله، فلا يظل في وضع الاعتدال، بل يضطرب جسمه فيميل، وتضطرب مشاعره فتخرج عن حد الاعتدال، فتتأرجح صعوداً وهبوطاً، وهذا ميلان، والعائل هو الثقيل المعني والثقيل المصاب بالعباء أو الاجهاد، يميل في حركته ولا يستقيم، بل يضطرب ويترهوك^(٧)، وعال: احتاج، والمحتاج يميل الى من حاجته عنده ميلاً مادياً، اذ ينعطف نحو مكانه، وميلاً شعورياً، لأنه لا ينعطف نحو مكانه الا اذا انعطف نحوه شعورياً، وعال: جار في الحكم، والجار في الحكم مائل عن الحق قطعاً، اي مائلاً عن الصراط المستقيم.

وعال: بكى، ورفع صوته في البكاء، والمرء لا يبكي الا اذا مالت نفسه عن الاعتدال، سواء أكان البكاء عن حزن أم عن فرح، لأن الشخص الفرح لا يبكي الا اذا تجاوزت مشاعر الفرح عنده حد الاعتدال كثيراً، ومثله المستغيث، فلا يستغيث أحد الا لأن أوضاعه المادية والمعنوية، خرجت عن حد الاعتدال، اي مالت نحو الضعف، وطلب صاحبها معونة الآخرين، وهذا ميل نحوهم، وعال: اتكل على غيره، والمتكل على غيره مائل له، نفسياً ومادياً، وعال له: سعى من اجل الانفاق عليه، والمرء لا ينفق على شخص الا اذا كان مائلاً لهذا الشخص، اما من باب الميل بالحب الى القريب، او الميل بالعطف من باب الرحمة على الفقير.

ولهذا عندما شكَا الزبيرقان الحطيئة الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، لم يرد عمر ان يحكم برأيه، فاستفتى حسان ابن ثابت رضي الله عنه كشاعر يعرف مداخل الشعر ومخارجه كما رأى عمر، فقال عمر: هل هجاه حقاً؟ قال حسان: بل سَلَحَ عليه، فعاقب عمر العادل الشاعر الهجاء.

إذن (عائلاً) هاهنا بمعنى (معولاً) من حيث حقيقة المعنى، وبمعنى اسم الفاعل من حيث المعنى الظاهر، وهنا ينشأ سؤال: ما الغاية البلاغية من استعمال القرآن ﴿عائلاً﴾ بدل (معولاً) اذا كان معنى ﴿عائلاً﴾ يعود الى (معولاً) من حيث حقيقة المعنى؟

الجواب: من ثلاث نواح.. الأولى: ان الكلمات الثلاث في الآيات الثلاث، جاءت على صيغة اسم الفاعل، وهي بمعنى اسم المفعول، فـ (يتيماً) أصلها (ياتم)، قال في لسان العرب: «وأما يتمه فعلى يتم فهو -ياتم- وان لم يسمع»، أقول: والذي جعلها على وزن اسم الفاعل ان (اليتم هو المنفرد والمحتاج) في اصل المعنى (على ان نتفهم ان المحتاج ليس بالضرورة هو الفقير، فقد يكون المرء دخله في الاردن ألف دينار، يكفيه لمصروفه، وقد يفيض، ولكنه محتاج! كيف؟ محتاج لأنه يريد ان ينشئ مشروعاً بمئة الف دينار، وليس عنده منها شيء، فهو إذن محتاج لها، مع انه ليس بفقير.

وكلمة ﴿ضالاً﴾ واضح انها على وزن اسم الفاعل، ومثلها ﴿عائلاً﴾، فواضح ان «النسق» لا يتم الا بذلك، اي بأن الكلمات الثلاث على

عال على: والعائل بمعنى (المتكل - أو المعتمد) على غيره.. تعني ان (عال) عبارتها- في اطار هذا المعنى هي: (عال على)- فعائلاً تعني هنا (عائلاً على)- اي: (عائلاً على جده ثم عائلاً على عمه) - فإذن.. كما يقال: (الرجل عائل لإبنه) - يقال: (الابن عائل على أبيه)، وبهذا فـ (عائلاً) تأتي اسم (فاعل) على المعنى الأول، وتأتي بمعنى اسم (المفعول) على المعنى الثاني، وان كانت صورتها (بنيتها - أو وزنها) على صورة اسم (الفاعل) لأن معناها، في التعبير الثاني هو معنى اسم المفعول، ومثل هذا يرد في اللغة، أما ترى اننا نقول في باب الفعل: فلان (شُغِف) بأبنائه حباً؟ فشغف جاءت على صورة الفعل المبني للمجهول، مع ان حقيقتها انها فعل مبني «للمعلوم» لأن الضمير بعد «شغف» العائد على «فلان» انما هو فاعل، وليس نائب فاعل.

وان اسم الفاعل يأتي أحياناً بمعنى اسم المفعول، كقول الحطيئة (ت ٥٠هـ) يهجو الزبيرقان ابن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك انت الطاعم الكاسي
فالطاعم والكاسي، على وزن اسم الفاعل، ولكن معناها معنى اسم المفعول، ولذا كأن الشاعر قال: (فإنك انت المطعوم والمكسو) لأن البيت في الهجاء، اي - انت يا زبيرقان بدل ان تُطعم وتكسو المحتاجين، فأنت الذي يُطعمك الآخرون ويكسونك، والى هذا فـ (طاعم) تأتي اسم فاعل، كما انت آنفاً، بمعنى اسم المفعول.

يفقهون حديثاً ❖ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك❖ النساء: ٧٨-٧٩ .

ومحصول كلام الله تعالى السابق (أو ما فهمته منه) ان الله تعالى خلق الخير والشر - بدءاً - وعندما خلق الانسان جعل في نفسه الشر والخير، قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها ❖ فألهمها فجورها وتقواها﴾ الشمس: ٧-٨، ثم أرسل الرسل لكي يدلوا الناس على طريق الخير ليتبعوها، ويحذروهم من طريق الشر ليجتنبوها، فإذا اتبع الانسان الرسل فعمل بالخير، كان عمله بأمر الله تعالى، وبمجاهدة من الانسان، فكان الانسان فاعلاً ومنفعلاً.

وإذا تنكب الشخص طريق الرسل، فعمل بالشر، كان ذلك بقدر من الله لا بأمر منه تعالى، فكان الشخص فاعلاً بهواه، وليس منفعلاً بأمر الله والله تعالى أعلم.

وبعد.. رأيت الإعجاز في هذا الاستعمال القرآني؟ ان كل كلمة من الكلمات السابقة دلت على معنيين، ولخصت «جوهر» الاسلام، بطريقة غير مباشرة، فما الاسلام في جوهره الا هذه القضية: الإنسان مخير ام مسير من الله تعالى؟ فآية النساء حلت الإشكال، وآيات سورة الضحى الثلاث اشارت من بعيد الى الإشكال، وهذا هو الاعجاز الذي لا يدنو من حماء بنو البشر، فالكاتب او الشاعر من البشر، يأتي بالكلمة وقصاره ان تصيب معنى واحداً، فتلم بجميع جوانبه، ولكن الشاعر او الكاتب لا يطمح الى ما وراء ذلك، وهذا هو احد وجوه الاعجاز في القرآن الكريم، فليس

وزن اسم الفاعل، في الصورة في الكلمتين الثانية والثالثة، وفي الأصل في الكلمة الأولى.

والناحية الثانية، ان معنى كل منهن هو اسم المفعول، فاليتيم لم يهتم نفسه، وانما يتم بقدر من الله تعالى، (وان كان فاعلاً من حيث الصورة، لأنه منفرد، ومنفرد اسم فاعل) والضال وصفاً للنبي الكريم ليست بمعنى الانحراف في الاستقامة والسلوك، ولا الانحراف عن وحدانية الله تعالى، فهو يعرفها وانما هي عدم اعتداء للوحدانية، مع الجد في البحث عنها، كما تحنثه ﷺ في غار حراء، وإذن الرسول ﷺ لم يهتد الى الوحدانية من البلوغ حتى الأربعين، بقدر من الله تعالى، وإذن فاعل عدم الاهتداء هذا هو الله تعالى، وليس محمد ﷺ، الا «منفعلاً» اي الا منساقاً بقدر الله تعالى.

وقد سبق القول بأن (عائلاً) بمعنى (معولاً).

الناحية الثالثة (وهي مهمة جداً): ان هذه الكلمات الثلاث تدل كل منها على معنيين بصيغة واحدة: معنى الفاعلية من الرسول ﷺ ومعنى المفعولية من الله تعالى، وهذا يعني في الحساب الأخير ان الانسان (والمثل العظيم على ذلك الرسول ﷺ) مسؤول عن أفعاله الارادية، ولهذا فهو مكلف، ومع ذلك فأفعاله الارادية كلها -بَلْ غير الارادية- لا تخرج عن انها من قدر الله تعالى.

ولهذا قال الله تعالى في موطن آخر: ﴿وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون

للشعر ان يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله، فعمجز عن ذلك العرب الفصحاء، وأنه لبديهي امام اعجاز القرآن الكريم المتعدد الوجوه ان البشر والجن أيضاً، عاجزون عن الإتيان ولو بسورة من مثله، وأقصر سورة هي «الكوثر»، وهي من ثلاث آيات قصيرة، تقع في عشر صور كلامية، تتضمن حوالي سبع عشرة كلمة، ليس غير.

(عائلاً) هنا.. لا تعني فقيراً قطعاً:

والجد عبد المطلب، كان في ايامه سيد مكة المكرمة، غير منازع (اي كان امير مكة)، والعم نزل درجة، فلم يكن سيد مكة، وإنما كان سيد بني هاشم، وبني عبد مناف، وكان يفوقه في المكانة ابو جهل، ويوازيه في المكانة أبو سفيان، والوليد بن المغيرة (اي كان احد امراء مكة الأربعة، ولكن ابا جهل كان فوق الثلاثة الآخرين).

هذا يعني ان (عائلاً) بمعنى (فقيراً)، ليست صحيحة قطعاً، وصفاً للرسول ﷺ، منذ الولادة، ومروراً بزواجه بخديجة رضي الله عنها، حتى انتقاله ﷺ الى الرفيق الأعلى، ليست صحيحة، وصفاً له، لأن الذي يتكل في إعالته ورعايته على جد عظيم، ثم عم عظيم، كلاهما كان ذا مال، الجد كان غنياً، والعم كان موسراً لا يصح ان يوصف بأنه فقير البتة، وهل الطفل الذي يعتمد في اعالته على ابيه المليونير، أو جده او عمه المليونير يمكن ان يوصف بأنه فقير؟ قطعاً لا.

أجل يمكن أن يوصف بأنه لا يملك مالاً

مسجلاً باسمه، ولكن لا يصح ابدأً ان يوصف بأنه فقير، الطفل الذي يوصف بأنه فقير، هو الذي ينشأ في بيت فقير، وهنا، لو قلنا: كنت عائلاً فأغناك الله.. لصح أن معنى (عائلاً) يكون (فقيراً) والرأي الجديد -عادة- أهميته تكمن في أدلته، فقوتها قوة له.

والحق ان في الآية الكريمة ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾^(٩)، حذفاً، فالتعبير من غير حذف هو: «ووجدك عائلاً على جدك، ثم عمك، ثم خديجة.. فأغناك»، ولكن حذف ما حذف كان لأمر بلاغي، اذ ان اللطف مع الرسول الكريم ﷺ، يقتضي الاكتفاء باللمح، لأن التفصيل بذكر المنعمين على الرجل الكريم لا يريحه، بل يحرجه، ولأن التفصيل يخرج الآية من نسقها، فقد سبقها ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾ ووجدك ضالاً فهدى ❖ ووجدك عائلاً فأغنى❖، فأنت ترى ان النسق المرتبط بالمعنى لا يرشح عبارة طويلة، وإنما يرشح كلمة واحدة، لأن العبارتين السابقتين، توسطت كلاً منهما كلمة واحدة، هي مع الأولى «يتيماً»، ومع الثانية «ضالاً» فحق (للمعنى والجمال) ان تتوسط العبارة الثالثة كلمة واحدة هي «عائلاً» ليس أكثر.

هذه السورة بنيت على الحذف:

والحق ان هذه السورة القصيرة، بنيت على الحذف، من اجل ان يكون في خطابها للرسول ﷺ، بتعديد نعم الله تعالى عليه، رفق ولطف به، أما ترى انها جاء فيها: ﴿وما ودعك ربك وما قلى﴾؟ وتامام العبارة (وما قلاك)، ولكن حذف الكاف ارفق به، لأن القلى

المتصف بالقناعة لا بد من ان يكون مدركاً راشداً مميزاً، ولا يصح بحال من الأحوال ان نصف الصبي الصغير بأنه «قانع» لأن الصغير لا يعرف ولا يعي معنى القناعة، لأن القناعة مفهوم عقلي، ورضى وجداني، والرضى الوجداني ناتج عن المفهوم العقلي، فليست القناعة كالأشياء الغريزية في النفس التي لا تحتاج الى وضوح فكري، فالطفل منذ الولادة تهديه غريزته الى الرضاة من ثدي أمه، دون وعي فكري او تعلم، وتهديه غريزته وهو في الثانية من عمره أو الثالثة، أن يخاف من الأسد، من دون ان يكون لديه مفهوم عقلي مسبق عن الأسد، فصورته تثير عنده الخوف وهكذا.. أشياء كثيرة.

إذن.. فكرة القناعة والرضى بها، ليستا مما يدور في خلد الرسول ﷺ وهو طفل، فصبي، فبطل، إذن هذا المعنى كما بطل معنى اتصافه ﷺ بأنه كان فقيراً، عندما كان طفلاً فصياً.

الرسول ﷺ رعى الغنم:

قد يقال: لكن الرسول ﷺ رعى الغنم لأهل مكة في صغره على قراريط، الجواب.. ان ذلك ليس صحيحاً على إطلاقه، الرسول ﷺ رعى في صغره الغنم، وغالباً كان ذلك بعد سن الثانية عشرة، ولفترة لا تزيد على سنة، ولم يرع غنماً لأهل مكة، بل الغنم كانت لأبي طالب عمه، فلا يصح في العقل ان أبناء السادة أو الأمراء يرعون او يعملون اي عمل ليكسبوا أجراً، وإنما هم يرعون لكي يشبوا صلاباً، يتحملون اعباء الرئاسة والسيادة،

(البغض) من المحبوب لمن يحبه ثقيل على النفس، مؤذ لها، وان كانت (قل) جاءت في معرض النفي، فوصل كاف الخطاب بما يجعلها أقرب الى الايجاب.

ثم ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾، وتمام التعبير الذي حذف، لشأن بلاغي هو: (وللدار الآخرة خير لك من الدار الأولى) فحذفت (الدار) في المرتين، فلو وردت العبارة كما أوردتها بتمامها أولاً، لما توازنت مع العبارة السابقة ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾، لأنها تكون أطول منها، بوضوح، وثانياً، لأن المراد التركيز على الصفة، لا على الموصوف، من اجل الوصول بسرعة الى الهدف، وهو ان الخيرية الكاملة هي في الآخرة وليس في الدنيا.

وهكذا كان حذف في الآيات الثلاث الأخيرة، ندع ابانته دفعاً للتطويل والانتقال لما ليس من هدف هذه المقالة.

ان ما قررناه آنفاً، يرد ما ورد عن ابن هشام في السيرة العطرة، في تفسيره لـ ﴿عائلاً﴾ ويرد ما قاله المفسرون من ان ﴿عائلاً﴾ تعني أحد ثلاثة معان، فالعائل عندهم هو الفقير، او من وُهب القناعة، أو المستغني بما يأتيه من ربه، والرأي أهميته بدليله عادة.

أقول: وضع مما سبق أن ﴿عائلاً﴾ لا تعني هنا فقيراً قطعاً، ثم ان من وُهب القناعة لا يختلف عن المستغني بما يأتيه من ربه، فكل المعنيين يعني ان المتصف بهما «قانع» وهذا معنى في هذا السياق، باطل، لماذا؟ لأن

كان الأبناء وذوو الأرحام، في حاجة الى المال، فهكذا عم الرسول ﷺ ابو طالب، ما كان يمكن ان يتخلى عن ابن أخيه، في لحظة يكون في حاجة فيها الى المال.

الخلاصة:

أخيراً، نخلص من كل ذلك ان رسولنا العظيم ﷺ، لم يكن فقيراً في يوم من الأيام، وما قالوا عن ان «عائلاً»: تعني فقيراً، إنما هو ناتج عن عدم تدبر الآية، وهي «ووجدك عائلاً فأغنى»، وعدم استعراض المعاني التي تستعمل لها كلمة (عال او عائلاً)، ثم اختيار ما يناسب المقام والمقال من هذه المعاني، المقام الذي يقوم على كفالة اميرين من أمراء مكة المكرمة للرسول ﷺ وهو صغير، وكان أحدهما -الجد- غنياً، وثانيهما -العم- موسراً، والمعال الذي ليست كلمة «فأغنى» فيه نقيضاً لكلمة «عائلاً»، وهذا كثير في اللغة لأن (عائلاً) تعني: عائلاً على جده ثم عمه، أي معولاً منهما.

ومع الشباب.. تزوج ﷺ السيدة خديجة رضي الله عنها، وكانت ذات مال، فبسطته بين يديه الشريفتين، ثم جاءت الفنائم بعد الهجرة الى المدينة المنورة، فكان له ﷺ خمس الفنائم^(١١)، ولكنه كان ينفق معظمه، وان الموسر المنفق لا يعد فقيراً.

إذن الرسول العظيم ﷺ كان جواداً زاهداً، فلم يبق مالا بين يديه، ولكنه لم يكن «فقيراً» في يوم من الأيام، هذا ما يجدر ان «يعيه» الخاصة والعامة، وبالله السداد والتوفيق.

ويكونون قادرين على تحمل المشاق لو أجبرت الظروف عليها، أما ترى ان الملوك والرؤساء في مختلف العصور، يلحقون أبناءهم بالجيش غالباً، لا لكي يحصلوا على راتب، بل لكي يصلب عودهم، وتقوى شخصياتهم، ويتحملوا اعباء الحكم كياراً، وهكذا.. اصحاب الرئاسة، في كل العصور والمصور.

وهكذا.. كان رسول الله ﷺ، قد رعى غنم عمه ابي طالب، وعلى الأكثر وغنم بعض اقارب ابي طالب من بني هاشم، لا من اجل قراريط يحصل عليها^(١٠)، حتى (وان اخذها فعلاً) وانما من اجل الغاية الكبيرة، ان يصلب عوده، ومن اجل غاية اخرى ارادها الله تعالى له، ان يتفكر في خلق السموات والأرض، في صفاء الليل، وسحابة النهار، وأن يتعود العطف والرعاية للناس فيما بعد، من خلال تدريبه ﷺ على العطف والرعاية للأغنام، فرعاية الأغنام والعطف عليها، مقدمة لرعاية الناس والعطف عليهم فهذا رشد آتاه الله محمداً الحبيب، كما آتاه ابراهيم الخليل عليه السلام من قبل.

وحتى عندما سافر في تجارة خديجة، قبيل خطبته لها وزواجه منها، فما كان ذلك لحاجة مادية بالدرجة الأولى، وانما كان ليخبر ميداناً مهماً من ميادين الحياة، لا تقوم الحياة او لا تستقيم بدونه، ولم يكن عمه العظيم ليقبل لابن أخيه ان يعاني من الحاجة، فكما ان كل السادة (اغنياء عادة) في كل العصور، فهم مستعدون ان يفيضوا على أبنائهم ومن يؤنهم من الأرحام من مالهم، اذا

الهوامش:

❖ اتكل على فلان.. تختلف عن «توكل» على الله تعالى، لأن اتكل على فلان تعني: اعتمد عليه في أمر من الأمور، فترك تصريفه له، فاتكل رسول الله، وهو طفل وصبي على جده، ثم عمه كان أمر رعايته وتصريف معاشه لهما، أما توكل على الله تعالى، فتعني أن الشخص عمل كل ما في وسعه في باب من ابواب الحياة، واثاء ذلك وبعده، يفوض أمره الى الله تعالى، فتحقيق النتائج مرهون بإرادة الله تعالى.

١- محمد ابن عبد الله، ومثلها محمد ابن عبد الله، ومحمداً ابن عبد الله ﷺ، أنا أرى أن محمداً مع رسولنا الكريم ﷺ، يحسن أن تكتب دائماً منونة بتوين الفتح او الضم او الكسر، حتى عندما يتبعها «ابن» ذلك تمييزاً للرسول الكريم ﷺ بهذه الحركة الاعرابية يكون «مستقلاً» بعلميته، متميزاً عن غيره، فأنت اذا قلت: «سالم ابن سعيد» بضمة واحدة على سالم، فذلك يعني ان علميته ناقصة، بدلالة أنك تصفه بـ ابن والعلم الكامل العلمية لا يحتاج الى وصف، وهكذا رسولنا الكريم ﷺ، فهو كامل العلمية ولكن اذا قلت: سالم ابن سعيد، فنونت سالماً فهذا يعني انه علم كامل العلمية، لأن ابن سعيد تضحي عطف بيان على سالم، وعطف البيان.. مستقل عن المعطوف عليه، كما ان المعطوف عليه مستقل عن المعطوف، من ذلك مثلاً قول الله تعالى: ﴿قل اعوذ برب الناس ❖ ملك الناس ❖ اله الناس﴾ الناس:

١-٣.

فعبارة «ملك الناس» مستقلة عن عبارة «رب الناس»، وهذه العبارة مستقلة عن العبارة السابقة، ومثلها العبارة الثالثة، فكل من العبارات الثلاث

مستقلة عن الاثنتين الآخرين، فهذه العبارات الثلاث، العلاقة بينها عطف بيان والله تعالى أعلم.

٢- سيرة ابن هشام، المقدمة ص١٢، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٥/١٩٥٥، تحقيق مصطفى السفا وزميليه.

٣- الضريك: الفقير، والمستبح: الذي يضل بالليل، فينبج نباح الكلاب لتسمعه الكلاب فتجاوبه، فيعلم مواضع البيوت فيقصدها، والدريس الثوب الخلق، وثناه، لأنه أراد به الازار والرداء، وهو أقل ما يكون للرجل من اللباس.

٤- الفرّ: المشهورون، وأصله الرجال البيض الوجوه، وهو جمع أغرّ. والججاج: السادة واحد ججاج، وكان الاصل ان يقول: الججاجيح بالياء، والحدثان: حوادث الدهر وصروفه ومصائبه، انظر للنص وشرح الكلمات: السيرة ٢٨٤/١، الرياض، مكتبة العبيكان ١٤١٨/١٩٩٨، تحقيق الشيخين عادل احمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ومحققه غير محقق السيرة في الرقم ٢ وليس لنا هدف من بيان علم مؤلفي السيرة العطرة، وأنه ضمه عقل لا يتفكر، فيربط بين أشياء الواقع، ليدرك المقبول من غير المقبول، ليس لنا هدف الا ان يدرك المتلقي أنهما يقولان كثيراً ما ليس حقيقة، ولا يحمل على تصديقهما، الا تقديسهما وهما ليس بمقدسين - يرحمهما الله.

٥- انظر: الالوسي محمود، روح المعاني، ٢٠/٢١٣، الطبعة المصورة، وانظر الفضل ابن حسن الطبرسي والبيضاي، عبد الله ابن عمر، تفسيره ٥١٢/٩، محمد ابن حبيب ٢٩٥/٦، وسيد قطب، في ظلال

القرآن ٣٠/٣٩٢٧ .

٦- انظر لسان العرب، مادة (عال ويعول).

٧- يترهوك: يمشي مشية مضطربة.

٨- انظر السيرة، ١/ ٢٣٣ .

وجوداً، أما قال الله تعالى عن المؤمن: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ الأنعام: ١٢٢، فالنور (= الوجود الحقيقي)، هو الايمان والكرامة والظلمة هي الكفر، وفقدان الكرامة.

قد يقال: كما ان «وجد» تشير الى قضية الوجود، فـ «كان» تشير الى قضية الكينونة، فلا فرق بينهما، والجواب ان «كان» لا تدل على المفعولية، وانما تدل على الزمن الماضي فحسب، اما «أوجد» فتدل على المفعولية، والفرق بين المفعولية وعدمها اي المبتدأ هنا لان عبارة (وكنيت عائلاً) لا تختلف عن عبارة (انت عائلي)، الا من حيث ان الأولى تدل على الزمن الماضي، من حيث ان الثانية لا تدل عليه، هو ان المفعول بمامل ما متأثر به، ايجاباً وسلباً، اما المبدأ فليس متأثراً بمامل لفظي، واذن بما ان الكاف في ﴿ووجدك﴾ متأثر بفعل الله تعالى، فما جاء من خير اليجاد ثم الاغناء، فهو من الله تعالى، وهذا هو السبب في أن ﴿ووجدك﴾ تشير الى قضية الوجود الحقيقي، (وجود الايمان والكرامة)، اما «وكنيت» فلا إشارة فيها أكثر من كون الانسان يعيش على هذه الارض... وهذا فرق كبير. هذا ما نفرق به بين الاستعمالين، وقد يكون فيهما ما هو وراء ذلك والله اعلم.

١٠- رعيه ﷺ الغنم وهو فتى، في حدود الخامسة عشرة من عمره الشريف، فقد ورد عند الامام البخاري ٥/ ١١٩، وعند الامام مسلم ٣/ ١٦٢١، نقلاً عن هامش السيرة ١/ ٢١٥ .

١١- اقرأ قول الله تعالى: ﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ الأنفال: ٤١ .

٩- ﴿ألم يجدك﴾ ثم ﴿ووجدك﴾ وجد هنا متعدية الى مفعولين، ثم هي ليست بمعنى (ألفاك)، وإنما هي بمعنى (خَبَّرَكَ)، وهذا شبهه بقوله تعالى: ﴿أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ آل عمران: ١٤١، فيعلم هنا ليست بمعنى العلم، الذي هو ضد الجهل، بل معناها هنا: ولما يختبركم الله تعالى، ليتبين الذين جاهدوا منكم وليتبين الصابرون، او «وجد» هنا بمعنى «كان» اي: (ألم تكن يتيماً هاوياً).

ولكن ما الدلالة المتفوقة هنا لعبارة ﴿ألم يجدك﴾ على عبارة (ألم تكن)؟ الدلالة المتفوقة هي الإشارة الى قضية الوجود، وكان الآية الكريمة تذكر الرسول بشكل غير مباشر بنعم الله تعالى عليه، اذ يسر جده العظيم ثم عمه العظيم لكي يؤويه، واذ أنزل عليه الوحي، فانتقل من الحيرة والضلال، لعلم معرفة خالق الكون معرفة يقينية، ثم كما يسر تعالى الجد والعمل لإيوائه كما الأب، فقد يسرهما لإعالته حتى أغناه بعد ذلك، كأنها توحى بأنك يا محمد لولا نعم الله تعالى عليك، لكنت كأنك غير موجود .

فالوجود الحقيقي ليس مجرد العيش على وجه هذه الأرض، لستين سنة، أو مئة سنة، وإنما الوجود الحقيقي هو ان تتربى في بيت كريم، فتتسأ عزيزاً كريماً، أبيعاً للضميم، ثم ان ينير الايمان والحق فؤادك، لأن الحياة بلا إيمان وكرامة، هي مجرد حياة، وليست